الباب الرابع

الإسكندرية
فى العصر المملوكى

الفصل الأول : المنشآت الدينية والعلمية فى عصر المماليك.

الفصل الثانى : الإسكندرية فى عصر الظاهر بيبرس.

الفصل الثالث : الإسكندرية فى عصر الناصر محمد بن قلاوون.

الفصل الرابع : الإسكندرية فى عصر الأشرف شعبان.

الفصل الخامس : شفق الغروب، الإسكندرية فى أواخر العصر المملوكى.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المنشآت الدينية والعلمية

فى عصر المماليك

ارتفعت مكانة الإسكندرية فى عصر المماليك حتى أصبحت ميناء مصر الأول، وثانى مدينة بعد القاهرة، وذلك لسببين: أحدهما اقتصادى، والثانى حربى.

أما السبب الاقتصادى فمرجعه أن تجارة مصر الخارجية مع الشرق والغرب قد زاد نشاطها وازدهارها فى هذا العصر حتى لقد أصبحت الرسوم التى تجبى على التجارة الخارجية تكون جزءًا كبيرًا من دخل الدولة، وإذ كانت الإسكندرية هى ميناء المرور لهذه التجارة الشرقية والغربية فإنه من السهل أن نتصور مبلغ ما نعمت به المدينة وأهلوها من رخاء وثروة ورفاهية، ومبلغ ما كان لهذه الثروة من أثر فى عمرانها ونموها وازدهارها.

وأما السبب الحربى فمرجعه إلى تحول أنظار الصليبيين - أو بعبارة أدق بقاياهم فى جزر البحر الأبيض المتوسط وأوربا - إلى الإسكندرية بعد أن منيت الحركة الصليبية بالفشل الذريع فى حملتيها على دمياط فى عهدى الملك الكامل والملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد رأت الدولة المملوكية - بعد فشل الحملة الأخيرة - الصواب فى هدم مدينة دمياط حتى لا يفكر الصليبيون فى تجديد الإغارة عليها، وبنيت إلى الجنوب من دمياط القديمة مدينة جديدة بعيدة عن شاطئ البحر.

وأتم سلاطين المماليك الأول الجهود الحربية التى بدأها بنو أيوب، واستطاع السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أن يطهر شواطئ الشام من الصليبيين ويطرد بقاياهم من عكا آخر معاقلهم فى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م).

واستقرت شراذم من هؤلاء الصليبيين بعد خروجهم من الشام فى جزر البحر الأبيض المتوسط، كرودس وقبرص، وعندما حاولوا أن يغيروا من هذه الجزر على مصر كانوا يتجهون دائمًا إلى مدينة الإسكندرية، ولهذا نلاحظ أن جهود سلاطين المماليك تركزت بعد ذلك فى العناية بثغر الإسكندرية عناية دائبة متصلة، واستجاب الأهلون كذلك لهذه الرغبة، فأخذوا يعملون من جانبهم على المشاركة فى تحصين المدينة والدفاع عنها.

أما تخطيط المدينة العام فلم يتغير كثيرًا فى هذا العصر، وإنما بقى هو هو كما عهدناه فى العصور الإسلامية السالفة، وإنما خضعت المدينة فى هذا العصر المملوكى لشىء من التغير تبدو مظاهره فى زوال بعض المنشآت القديمة المعروفة، وإقامة منشآت جديدة كثيرة هى صدى للرخاء الاقتصادى الذى نعمت به المدينة فى معظم سنى هذا العصر، وللعناية البالغة التى أسبغها معظم سلاطين المماليك على المدينة.

أما المنشآت الجديدة فكانت فى معظمها من وحى الروح التى سادت العصر وهى روح الجهاد الدينى: الجهاد بالسلاح، والجهاد بالعلم، لهذا امتدت الحركة التى امتاز بها العصران الأيوبى والمملوكى، وهى حركة إنشاء المدارس والخوانق والربط والزوايا حتى شملت الإسكندرية، فانشىء فى الإسكندرية فى العصر المملوكى عدد كبير من هذه المؤسسات العلمية التى تقوم - فى معظمها - على أساس من التصوف وما يستتبعه من شعر صوفى ودراسات وابتهالات صوفية - وفى أقلها - على التفقه فى العلوم الدينية المختلفة. وخاصة علم الحديث.

وفيما يلى إحصاء بأهم هذه المؤسسات العلمية والدينية التى أقيمت فى العصر المملوكى جمعنا شواردها من المصادر التاريخية المختلفة، وإن كنت أعتقد أن ما أهمل ذكره المؤرخون أكثر بكثير مما ذكروه.

١ - رباط أطكين الواسطى:

وهو من القليل الذى بقى، والباقى منه حتى اليوم جزء صغير ويقع شرقى مسجد أبى العباس المرسى، وقد تحول إلى زاوية صغيرة يتصل بها من الناحية القبلية قبة صغيرة يتوسطها قبران، ويوجد أمام الشرقى منهما لوح من الرخام منقوش عليه اسم صاحب الرباط والقبر وسنة وفاته، وهذا هو النص:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبى ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ سورة آل عمران (الآية) ١٨٥ توفى الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضى أطكين شهاب الدين أبو على منصور، بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفتوح نصر، ابن الشيخ أبى الفضل جعفر الواسطى القاضى العدل، ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف، سنة اثنتين وسبعين وستمائة، رحمه الله تعالى ونور ضريحه».

٢ - رباط سوار:

وكان يقيم به أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبى المتوفى سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م).

٣ – مدرسة عبد اللطيف بن رشيد التكريتى المعروفة بدار الحديث التكريتية:

مؤسسها عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن سديد الربعى التكريتى نزيل الإسكندرية ومن رؤساء الكارم، كان أحد كبار تجار الإسكندرية وعلمائها فى القرن السابع الهجرى، وتوفى فى سنة ٧١٤ هـ عن ست وسبعين سنة وقد بقى من هذه المدرسة جزء يعرف الآن «بمسجد أبو على» بشارع البلقطرية بقسم الجمرك، وقد أنشئت هذه المدرسة أصلا لتدريس الحديث ومذهب الشافعى، وقد تحولت فى القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) إلى زاوية صغيرة، ولازالت توجد بداخلها وفوق محرابها لوحة تذكارية عليها تاريخ إنشائها واسم منشئها، ونص ما عليها:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم، وإن المساجد لله، فلا تدعو مع الله أحدًا﴾ أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجى رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتى، لتلاوة الكتاب العزيز، وقراءة الأحاديث النبوية، وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى – رحمة الله عليه – فى شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه.

٤ – مدرسة عبد اللطيف بن محمد بن مسند:

أنشأها عبد اللطيف بن محمد بن مسند، وكان أحد تجار الكارم بالثغر ومن المشتغلين بالعلم، وبعلم الحديث بصفة خاصة، وتوفى سنة ٧١٤ هـ.

٥ – مدرسة عبد اللطيف بن أحمد بن الكويك:

بناها عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبى الفتح بن الكويك التكريتى الأصل، وأسرة بنى الكويك كانت من أكبر أسر الإسكندرية فى القرنين السابع والثامن الهجريين، وكان معظم أفرادها من تجار الكارم واسعى الثراء، ومن المشتغلين بالعلم، وقد تفقه عبد اللطيف هذا فى مذهب الشافعى وتلقى الحديث على كبار علماء الإسكندرية، وكان كثير الرحلة، وتوفى ببلاد التكرور سنة ٧٣٤ هـ، ونبغ من أولاده وأحفاده عدد من العلماء ترجم لهم ابن حجر فى كتابه «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة».

٦ – دار الحديث النبيهية:

لسنا نعرف اسم منشئها أو متى أنشئت، وقد ذكر ابن حجر اثنين من الشيوخ الذين تولوا التدريس بها، وهما إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن الغرافى، وأخوه تاج الدين، وكان

إبراهيم واحدًا من كبار علماء الإسكندرية فى القرن السابع الهجرى، وتوفى بها سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤م).

٧ – رباط الهكارى:

أنشأه خارج باب رشيد محمد بن الأمير زين الدين أبى المفاخر باخل ابن عبد الله الهكارى (متولى ثغر الإسكندرية فى عصر الملك الصالح نجم الدين أيوب) توفى سنة ٦٨٣ هـ ودفن فيه.

٨ – خانقاه بيليك المحسنى:

أنشئت فى أواخر القرن السابع الهجرى، وتولى مشيختها وقتًا ما موسى بن أحمد بن محمود الأقصرى المتوفى سنة ٧٤٠هـ.

٩ – مسجد أبى العباس المرسى:

توفى هذا الصوفى والعالم الكبير فى ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧م) فدفن فى قبره المعروف بالجبانة القديمة إزاء رباط الشاطبى خارج باب البحر من ظاهر الإسكندرية بمحرس سوار قريبًا من قبة المغاورى، وظل قبره قائمًا دون بناء يحيط به، ويقصده الزوار للتبرك به إلى أن كانت سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧م) حيث زاره كبير تجار الإسكندرية وقتذاك الشيخ زين الدين ابن القطن وبنى على القبر ضريحًا وقبة، وأنشأ له مسجدًا حسنًا ذا منارة مربعة الشكل وأوقف على الجميع بعض أملاكه.

١٠ – المدرسة الخضراء:

بنيت فى عصر السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى، وقام على بنائها الشيخ خضر ابن أبى بكر بن موسى المهرانى أحد الصوفية المتعبدين، وكان مقربًا للسلطان بيبرس وذا خطوة كبرى لديه، وقد أشار إلى هذه المدرسة ابن شاكر الكتبى فى كتابه «فوات الوفيات»، وذكر أن المدرسة بنيت مكان كنيسة قديمة كانت موجودة فى الإسكندرية تعرف بكنيسة الروم، قال ابن شاكر:

«وهدم (الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العدوى) الشيخ المشهور شيخ الملك الظاهر بالإسكندرية كنيسة الروم، وبناها مدرسة وسماها: الخضراء»

١١ – مدرسة الدماميني:

بناها فى أوائل القرن الثامن الهجرى (١٤ م) تاج الدين عتيق بن محمد بن سليمان المخزومى الدماميني، وأسرة بنى الدماميني واحدة من كبريات الأسر السكندرية فى العصر المملوكى، ذات ثراء عريض ومكانة، وقد نبغ من أفرادها أكثر من واحد، وكانوا فى معظمهم من المشتغلين بالتجارة وبالعلم فى وقت واحد، وقد ذكر هذه المدرسة الأدفوى فى «الطالع السعيد فى أعيان الصعيد» فقال فى ترجمته لعتيق بن محمد الدماميني:

«وبنى مدرسة بالمرجانيين بالثغر، ووقف أوقافًا كثيرة» – وأضاف أنه توفى فى القاهرة فى سنة ٧٣١ هـ.

١٢ – مدرسة الكويك:

أشار إلى هذه المدرسة خليل بن شاهين الظاهرى المؤرخ وأحد نواب الإسكندرية فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م)، وذكر أن بانيها الكويك كان من كبار تجار الثغر، وأنه صرف على بنائها من ربح تجارته فى يوم واحد، وقد أراد بهذا الاستشهاد أن يشير إلى ضخامة ثراء هذا التاجر قال:

«حكى أنه كان بالثغر تاجر يقال له الكويك، عمر بها مدرسة مشهورة الآن (أى فى أيامه) صرف عليها جملة من متحصل فائدة يوم واحد فقط».

١٣ – منشآت الأمير قجماس الاسحاقى الظاهرى نائب المدينة:

ولى الأمير قجماس نيابة المدينة من سنة ٨٧٥ هـ إلى ٨٨٠ هـ، وكان شغوفًا بالعمران فأنشأ فى المدينة عددًا من المنشآت الدينية أشارت إليها المراجع التاريخية – وخاصة السخاوى فى الضوء اللامع – فقد ذكر أن الأمير قجماس بنى بمدينة الإسكندرية مسجدًا خارج باب رشيد، وأنشأ إلى جانبه تربة له، وخانًا يأوى إليه المسافرون لينالوا شيئًا من الراحة قبل دخولهم أو بعد خروجهم من المدينة، كما أنه أنشأ رباطًا خارج باب البحر، وجدد جامع الصوارى خارج باب سدرة.

وقد زالت هذه المبانى جميعًا ولم يبق لها أثر.

obeikandl.com

الفصل الثانى
الإسكندرية
فى عصر الظاهر بيبرس

فى منتصف القرن السابع الهجرى (١٣ م) انتهى حكم بنى أيوب فى مصر ، وخلفتهم دولة المماليك ، وقد انقضت منذ مقتل تورانشاه آخر سلاطين بنى أيوب ، ومقتل قطز رابع سلاطين المماليك ، عشر سنوات كاملة (٦٤٨هـ - ٦٥٨هـ) كانت الدولة الجديدة فى خلالها تمر بدور التجربة ، تقاوم التحديات المختلفة من قوى الأيوبيين والصليبيين والمغول فى الشام ، ومن قبائل العربان ، وصراع أمراء المماليك فى الداخل ، وتحاول فى نفس الوقت أن تثبت أقدامها فى الملك وتدعم كيانها .

وقد شغلت شجرة الدر بأزمة شرعية سلطنتها ، وشغل المعز أيبك بصراعه مع شجرة الدر وأمراء المماليك وشغل ابنه نور الدين على بألعابه وملاهيه ، ثم شغل قطز بالخطر الأكبر ، خطر المغول ، ولهذا لم يستطع واحد منهم أن يفرغ للنظر فى شئون البلاد الداخلية وما يتصل بتحصينها أو راعية مدنها وثغورها .

ولم يكد يخلص الملك لبيبرس فى سنة ٦٥٨ هـ حتى أدرك أن أمامه جهادًا طويلا ضد الخطرين الجاثمين فى الشام وما يليها شرقًا : خطر الصليبيين وخطر المغول، وأدرك كذلك أنه لا يستطيع أن يترك مصر ويفرغ لجهاده المزدوج هذا إلا إذا أمن على مصر وثغورها ووسائل الدفاع عنها ؛ ولهذا بدأ منذ الأيام الأولى لتوليه العرش يوجه عنايته كلها إلى ثغرى مصر الشماليين (دمياط والإسكندرية) .

ففى هذه السنة ٦٥٨ كان بيبرس على حصار حصن الأكراد فى شمال الشام ، وهناك بلغه أن صاحب قبرص خرج منها فى أسطوله قاصدًا عكا ، فأراد بيبرس أن ينتهز هذه الفرصة ويهاجم قبرص أثناء غياب صاحبها ، فأصدر أمره إلى رؤساء أساطيله فى مصر بالخروج إلى قبرص ومهاجمتها ، فجهزت سبعة عشر شينيًا ، وتولى قيادتها : الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر (الفسطاط) ، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية ، وشرف الدين علوى بن أبى المجد بن علوى العسقلانى رئيس دمياط، وجمال الدين مكى بن حسون مقدمًا على الجميع .

ويفهم من هذا النص أنه كان فى مصر دور صناعة ثلاثة: فى الفسطاط ، وفى الإسكندرية، وفى دمياط ، ولكل دار صناعة أسطول ، ولكل أسطول رئيس أو قائد أو أمير بحر ، ويرأس الجميع فى الغزوات رئيس أو مقدم عام .

ولم يكتب التوفيق لهذه الغزوة البحرية ، فإن السفن وصلت إلى قبرص ليلاً ، وبعد وصولها بقليل هبت عليها ريح عاصفة ألقت بعض الشوانى على البعض الآخر، فتحطم منها أكثر من أحد عشر شينيا ، وأخذ من فيها من الرجال والصناع أسرى، وكانوا زهاء ألف وثمانمائة نفس، وسلم ناصر الدين رئيس مصر ، وابن حسون القائد العام، وعادوا إلى مصر بالسفن القليلة السالمة .

ويقول ابن عبد الظاهر تعقيبًا على أخبار هذه الغزوة فى كتابه (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر) : فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس إلى الغاية .

وفى هذه الأثناء وصلت إلى بيبرس – وهو على حصن الأكراد كذلك – أنباء تفيد أن سفن الفرنج دخلت ميناء الإسكندرية وأخذت مركبين للمسلمين ، فعاد من فوره إلى الديار المصرية ووصلها ثانى شعبان من سنة ٦٥٨ هـ.

وبعد وصوله تكاثرت الأخبار تنذر بخطورة الموقف ، فورد عليه البريد أولاً من الشام ، وبه ما يفيد أن الفرنج قاصدون الساحل ، والمقدم عليهم شارل أخو ريد افرنس ، وربما كان محطهم عكا (والمقصود الحملة الصليبية التى خرجت بقيادة لويس التاسع وقصدت إلى تونس ، وانتهى بها الأمر إلى الفشل ، وموت لويس هناك ، وقد كانت الشائعات تشير عند خروجها إلى أن هدفها سواحل الشام لا تونس) .

ولم تمض أيام حتى تلقى بيبرس أنباء أخرى تذكر أن اثنى عشر مركبًا للفرنج عبروا على الإسكندرية، ودخلوا ميناءها ، وأخذوا مركبًا للتجار واستولوا على ما فيه وأحرقوه، يقول ابن عبد الظاهر :

(ولم يجسر والى الإسكندرية أن يخرج الشوانى من الصناعة لغيبة رئيسها فى مهم استدعاه الملك الظاهر بسببه) .

هذه النذر المتتابعة دفعت بيبرس إلى توجيه كل عنايته لتحصين شواطئ مصر الشمالية وترميم حصونها وأبراجها ، وإقامة الاستعدادات الدفاعية ، والاهتمام بالثغور، وبخاصة ثغر الإسكندرية ، وبدأ فأصدر أوامره باتخاذ احتياطات حربية خاصة تذكرنا بالاحتياطات المستحدثة التى كانت تتخذ فى الحرب العالمية الثانية وقاية للمدن وساكنيها من خطر هجمات

الطائرات ، يقول ابن عبد الظاهر تعقيبًا على حادث هجوم سفن الفرنج على ثغر الإسكندرية ، واغتصابه إحدى سفن تجارها :

(ولما بلغ الملك الظاهر ذلك بعث أمر بقتل الكلاب فى الإسكندرية ، وألا يفتح أحد حانوتا بعد المغرب ، ولا يوقد نارا فى البلد ليلاً ، ثم تجهز بسرعة وخرج نحو دمياط يوم الخميس خامس ذى القعدة فى البحر) .

وبدأ بيبرس سلسلة من الإنشاءات والتحصينات فى كل ثغور مصر الشمالية ، ففى السنة التالية ٦٥٩ أمر بعمارة أسوار الإسكندرية وحفر خنادقها وإصلاح الواهى منها ، ورتب كذلك جملة من المال تنفق فى كل شهر ، وفى رشيد بنى مرقبًا لكشف البحر ، وفى دمياط أمر بردم فم البحر (أى مصب فرع دمياط) (فخرج جماعة من الحجارين، وألقوا فيه القرابيص (أى كتل الأحجار) حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله) .

واستكمالا لهذه الاستعدادات الحربية يبدأ ينظر فى أحوال الأسطول فوجد - كما قال ابن عبد الظاهر - أن :

(من كان قبله قد أهمل أمور الشوانى - وهى خيل البحر وسور الثغور ، وما برحت الملوك تهتم بهذا الأمر وتقطع رجالها الاقطاعات ، فوجد الأمراء قد أخذوا جماعة من رجالها فى الحراريق وغيرها ، فأعادها إلى ما كانت عليه فى الأيام الكاملية والصالحية ، واحترز على الحراج (الغابات) ومنع من التصرف فى أعواد العمل ، وأمر بعمارة شوانى الثغرين (دمياط والإسكندرية) ، ونزل بنفسه إلى الصناعة ، ورتب ما يجب ترتيبه فى مصالح الشوانى ، وأحضر شوانى الثغور من الحراريق والطرايد والسلالير) .

هذا ما ذكره ابن عبد الظاهر ومنه نستخلص أن الملك الظاهر بيبرس بدأ يدرس أحوال الأسطول المصرى ، فوجد أن الشوانى - وهى السفن الحربية الكبرى - قد أهملت وقلت العناية بها ، بل لقد نقل الأمراء ملاحيها إلى حراريقهم ، أى سفنهم الخاصة ، فبدأ يتخذ إجراءات كثيرة ليعيد الأسطول إلى الحالة التى كان عليها فى أيام الملكيين الأيوبيين الكامل محمد والصالح نجم الدين أيوب ، ومن هذه الإجراءات أنه (احترز على الحراج ، ومنع من التصرف فى أعواد العمل) ، ومعنى هذا أنه استولى على ما بمصر من غابات ، ومنع التصرف فيما ينبت بها من أعواد الشجر المستقيمة التى تصلح شرعًا للسفن .

ثم أمر بعمارة شوانى الثغرين ، أى إصلاح وترميم السفن الحربية الموجودة بثغرى دمياط والإسكندرية ، واتجه بعد ذلك بنفسه إلى دار الصناعة بالفسطاط ، وأصدر أوامره بتيسير

ما يساعد عل ترميم الشوانى وإعدادها ، وأمر كذلك باستدعاء السفن الحربية الموجودة فى الثغور الشمالية ، وكان عددها أربعين قطعة من أنواع مختلفة ، فمنها الحراريق ومنها الطرايد، ومنها السلالير – وكلها سفن حربية مختلفة الأحجام والأسماء –، وقصد بيبرس باستدعائها أن يخضعها مع بقية سفن الأسطول بصناعة الفسطاط لعملية الإصلاح والترميم والصيانة لتصبح صالحة بعد ذلك للقتال ، وبعد أن تمت كل هذه العمليات قامت هذه السفن بعرض عسكرى فى نهر النيل شهده السلطان بيبرس وفى صحبته الخليفة ، قال ابن عبد الظاهر :

(وفى يوم الأحد تاسع عشر من شهر رجب سنة تسع وخمسين ركب الخليفة ومولانا السلطان من القلعة ، ونزلا جميعًا إلى مصر (الفسطاط) ، ثم ركبا الحراريق، وتفرجا ، وطلعا إلى قلعة الجزيرة (الروضة) ، وجلسا بمقعد البانياسى ، ولعبت الشوانى ثم عادا إلى القلعة) .

وظل السلطان الملك الظاهر بيبرس بعد ذلك يولى ثغر الإسكندرية كل اهتمامه ، ويرعاه بعين رعايته ، ويتردد عليه لزيارته والإشراف على شئون أهليه .

كانت أولى زيارات بيبرس للإسكندرية فى سنة ٦٦١هـ ، وقد وصف هذه الزيارة مؤرخان معاصران ، أحدهما مؤرخ بيبرس ومؤلف سيرته محيى الدين بن عبد الظاهر، وثانيهما مؤرخ بنى أيوب جمال الدين بن واصل .

والوصف الذى أورده ابن واصل فى كتابه (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) أكثر تفصيلا واستيعابًا لأخبار الزيارة ، فقد كان مصاحبًا لبيبرس فى رحلته إلى الإسكندرية .

وقد ذكر المؤرخان أن بيبرس بدا رحلته فى اليوم السادس من شوال سنة ٦٦١هـ ، وانفرد عبد الظاهر بوصف مقدمات الرحلة - فقال إن السلطان خرج وفى معيته خواص دولته وأعيان حاشيته وأنه قضى الأيام الباقية من شوال فى الصيد بمنطقة تروجة - إحدى مدن مديرية البحيرة –، وفى الصحراء المجاورة لها ، وعنى بالآبار التى تمد هذه المنطقة الصحراوية بالمياه، فعين أحد حجابه وهو الأمير شجاع الدين الزاهدى للإشراف عليها (واحضر من الإسكندرية الرجال لحفر الآبار ونزحها من الأكدار) .

وكان قد سبقه إلى الإسكندرية الوزير بهاء الدين ، فأحسن إلى أهلها ، وحصل جملا كثيرة من الأموال للخزانة السلطانية ، وكان من جملة ما حمله خمسة وتسعون لفة من القماش مما هو موجود فى الإسكندرية ، ومما يصنع بها ، وقد أشار ابن واصل إلى أنواع هذه الأقمشة، فقال إنها كانت من :

(أنواع الأمتعة والحلل والبندقى الرفيع ، والجوخ الأحمر ، وغير ذلك ما لعله لا يوجد فى خزانة ملك عظيم مثله ، فكانت قيمته مائة ألف دينار) .

وقد أشار المؤرخان إلى أن الصاحب بهاء الدين كان رفيقًا بأهالى الإسكندرية وأنه أحسن إلى أهلها (ولم يعامل أحدًا بغير العدل ، ولا ضرب معاملا بمقرعة ولا شتم) ، ونص ابن واصل على أنه ساوى بين أهالى المدينة من المسلمين وبين من بها من تجار الأفرنج فى المعاملة الطيبة، فقال : (والفرنج على نحلهم وكثرة شكاواهم داعون شاكرون) .

ومهد الوزير لزيارة السلطان ، ونظر فى أحوال المدينة ومصالحها ، والأسوار والخنادق والفقراء ووجوه البر كلها).

ولما قضى بيبرس وطره من الصيد فى البرية عاد إلى تروجه وتوجه منها إلى الإسكندرية .

وذكر ابن واصل أن السلطان لما قارب المدينة

(زينت أحسن زينة ونصبت الأبرجة ، وأخرج أهل الإسكندرية ما عندهم من العدد المعدة للجهاد: من القسى ، والغفارات ، والزرد ، والخوذ ، والطوارق ، والجفاتى، والكبورة (نوع من الطبل) ، والكزاغندات ، وزينوا بها الشوارع والأسواق) .

ولا يعنينا من هذا النص مبالغة أهل الإسكندرية فى الاحتفال بمقدم سلطانهم لزيارة مدينتهم ، وإنما يعنينا منه دلالته الصريحة على أن أهل الثغر كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد للجهاد ، وأنهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بجميع أنواع الأسلحة المعروفة فى ذلك العصر من قسى ، وغفارات وزرد ، وخوذ ، وطوارق ، وكزاغندات .. الخ ليشاركوا جيوش الدولة النظامية فى الذب والدفاع عن المدينة إذا طرقها عدو ، يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها تفصيلا ابن واصل فيما قاله بعد ذلك إتمامًا لوصفه ، قال :

(وهكذا ينبغى أن تكون زينة الثغور ، ولقد رأيت برجًا فيه أحسن ما يكون من العدة والكبورة فسألت عن ذلك ، فقيل :

هى لرجل صباغ من بعض العوام ، عمل عدة بألفى دينار وعنده رجال ، يقوم بهم ويعدهم . وعنده صياقلة وصناع بجامكية لأجل افتقاد هذه العدة ، وهو من آحاد العوام الذين لا يعرفون) .

وانتقل ابن واصل بعد ذلك إلى وصف دخول بيبرس إلى الإسكندرية وما فعله أثناء مقامه بها قال :

(ولما كان مستهل القعدة سنة إحدى وستين وستمائة ركب الناس على اختلاف طبقاتهم ، واجتمع القبائل والرسل والتجار من الفرنج ، وجميع الناس على قدر منازلهم إلى لقاء السلطان ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، وساق فدخل من باب رشيد ، فتلقاه أهل الإسكندرية بالسرور والفرح ، والدعاء والابتهال إلى الله تعالى بدوام ملكه ودوام عزه ، ورأى الناس من حسن صورته وعظم مهابته ما بهر عقولهم .. وتمنوا دوام دولته ، وما استقر فى مجلسه حتى استدعى بالخزائن والأمتعة والخلع ، وشرع فى عرض ذلك بنفسه ، وتعبيته لمن يعينه من الأمراء على قدر مراتبهم ، فاستوعب نهاره كله ، وأصبح يأمر بمهمات الثغر وأمور المدينة ، وكان قد أمر بأن يكون لقدومه أثر ، ولوفوده ذكر جميل ..) ورسم بمكتوب شريف يقرأ على رؤوس الأشهاد بصلة أرزاق الفقراء والمساكين وشمولهم بالعواطف والمراحم ، ولما قرب وقت الجمعة ركب الملك الظاهر وحضر إلى الجامع ، وبسط المقصورة التى جرت عادة الملوك أن تصلى فيها لسماع الخطبة ، فجلس تحت المنبر وخطب الخطيب ، فأمره بالدعاء لولى العهد بعده الملك السعيد بركة خان ، وللملك بركة ، وفرغ من الصلاة ، وقرىء المنشور الشريف بما رسم للفقراء والمساكين) .

والجامع المذكور فى هذا النص هو الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة وقتذاك .

وفى اليوم التالى – وهو يوم السبت – ركب السلطان بيبرس إلى خارج المدينة ولعب مع قواده بالأكرة ، وأقام بعد اللعب حفلا لتوزيع الخلع والعطايا

(فخلع على جميع الأمراء الخلع الفاخرة ، وكذلك على مقدمى مماليكه البحرية ، وخلع على مقدمى الحلقة ، وخلع على خواصه ، وأعطى للأمير أتابك فارس الدين أقطاى ثلاثة آلاف دينار وأرضى جميع العسكر) .

وكان يقيم فى الإسكندرية وقتذاك قطبا الإسكندرية وشيخاها : القبارى والشاطبى ، وكانت للقبارى مكانة ملحوظة فهو يقيم فى بستانه يفلحه ويأكل من رزقه، ورغب بيبرس فى زيارته، وأنبئ الشيخ القبارى بهذه الرغبة فلم يسرع للقاء السلطان، وإنما اشترط أن يأتى السلطان للقائه فى بستانه، فلما آتاه وتحدث إليه لم يكن للشيخ من حاجة يزجيها إلى السلطان إلا نصحه إياه أن يعنى بعمارة الثغر وتحصينه – فقدر بيبرس للشيخ نصيحته، وخرج من عنده فقصد مباشرة إلى أسوار المدينة ، فطاف بها ، وأمر بترميمها والعناية بها ، ثم ذهب بعد ذلك لزيارة الشيخ أبى عبد الله محمد الشاطبى .

وروى أخبار هذه الزيارة فى تفصيل وعن مشاهدة المؤرخ جمال الدين بن واصل قال :

(وحدثت نكتة غريبة ، وهى أن شخصًا كان قد حضر وقال : إن الشيخ قطب الدين القبارى قد استؤذن على حضور السلطان ، فأذن ، – وكان السلطان قد طلب منه الإذن لزيارته – ، ثم حضر شيخ آخر وقال : إن الشيخ قال : لا سبيل إلى النزول إليه (أى إلى السلطان) ولا إلى كلامه إلا من أسفل البستان ، فقال السلطان : أنا رايح لله تعالى، فمن أى مكان شاء يكلمنى ، ولما وصل السلطان أعلم الشيخ قطب الدين القبارى بحضور السلطان ، فأمر بدخوله إليه ، فدخل وحادثه وباسطه ، وجرى فى أثناء ذلك حديث ثغر الإسكندرية وعمارته ، فللوقت تقدم السلطان بإجابة إشارة الشيخ .. وعاد بعد ذلك من زيارة الشيخ – أعاد الله بركته – ودار على أسوار المدينة ، ونظر فيها وأمر بما يجب فى أمرها ..) .

ومضى بيبرس بعد ذلك لزيارة الشيخ الشاطبى (واستعرض حوائجه ، فقال الشيخ :

(ليست لنا حاجة، لأن راتب السلطان علينا، ونحن من نعمته فى أنعام تفضل علينا وعنا.

وزار بعد ذلك قبور مشايخ ودعا عندهم) .

ويبدو أن أهالى الإسكندرية انتهزوا فرصة وجود السلطان بينهم وفى مدينتهم فتقدموا إليه بكثير من الشكايات يطلبون فيها إسقاط الضرائب أو إصلاح بعض الأوضاع الاجتماعية ، أو تغيير بعض الموظفين ، وقد استمع السلطان لهذه الشكاوى ، وعقد بعض المجالس لمناقشتها مع المسئولين ، وعمل على إنصاف الأهالى وتحقيق رغباتهم .

فقد ذكر محيى الدين بن عبد الظاهر أن أهل الإسكندرية كان قد كثر ألمهم بسبب استخراج ربع دينار على كل قنطار يباع ، وأنهم تقدموا بالشكوى إلى السلطان أثناء زيارته هذه لمدينتهم (فحطه عنهم وأبطله عن الرغبة) .

وذكر ابن عبد الظاهر كذلك أن رجلا من أهالى الإسكندرية يدعى ابن البورى حضر إلى السلطان وادعى أن بالثغر أموالاً ضائعة ، وأعطاه بها أوراقًا ، وكذلك آخر يعرف بالمكرم بن الزيات كتب أوراقًا ، فعقد السلطان مجلسًا فى يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة للنظر فى هذه الشكوى ، حضره أتابك الجيش أقطاى ، والوزير الصاحب بهاء الدين ، والقاضى والفقهاء ، وقرئت الأوراق ، وصار السلطان كلما فتح له باب مظلمة سده ، ويعود على المذكورين بالإنكار) .

وفى يوم الخميس ثامن ذى القعدة جلس السلطان (بدار العدل ، وبسط المعدلة) ، ثم أمر بعد ذلك بتطهير الثغر من الخواطى الفرنجيات .

ولهذا النص أهمية خاصة لمن يدرس الحياة الاجتماعية فى الإسكندرية فى ذلك العصر، فمنه ينصح أنه كان بالمدينة عدد من نساء الأفرنج يمتهن البغاء ، ومن المحتمل أن يكّن قد وفدن على الثغر أصلا لامتهان هذه المهنة ، أو لعلهن أتين للترفيه عن تجار الفرنج بالإسكندرية .

ويبدو كذلك أن أهالى الإسكندرية تقدموا بالشكاوى ضد قاضى المدينة بدر الدين بن أبى الفرج أثناء وجود السلطان بينهم ، وأنه اضطر إلى عزله وتعيين ناصر الدين بن المنير مكانه ، وقد أثير نقاش حول هذا الموضوع أثناء اجتماع بيبرس بالشيخ القبارى انتهى، بهذا العزل وهذا التعيين، أشار إلى هذا ابن واصل فقال فى ختام حديثه عن المقابلة بين السلطان والشيخ القبارى :

(ووقع بعد ذلك التعيين على القاضى ناصر الدين أحمد (ابن المنير) ففوض إليه الخطابة والقضاء ، ورسم له بالخلع وكتابة التقليد ، وأمر بالوصية على القاضى بدر الدين ابن أبى الفرج – القاضى المعزول – ، وكف الأذى عنه وإبقاء جامكيته وما كان له عليه، وأن تزاد حرمته وإكرامه) .

ويبدو أن بيبرس لجأ إلى تعيين ناصر الدين بن المنير فى منصب الخطابة والقضاء استجابة لوساطة القبارى ، وأنه لم يكن مرتاحًا لهذا التعيين ، أو أنه أنكر عليه بعض تصرفاته بعد تعيينه ، فإن ابن عبد الظاهر يذكر أن بيبرس لم يكد يصل إلى القاهرة بعد عودته من الإسكندرية حتى :

(أعاد الفكرة فى قضاء الثغر المحروس، ورأى توليته لرجل غريب ؛ فوقع الاختيار على الفقيه العالم برهان الدين المالكى ، وهو زاهد عابد يأوى فى مسجد بمصر ، فقلده قضاء الإسكندرية، وتوجه إليها، وفوض الخطابة للقاضى زين الدين بن أبى الفرج الذى كان حاكمًا، وصلح الحال بهذا التدبير).

وظلت عين بيبرس على الإسكندرية يتولاها بعنايته كلما احتاجت إلى رعايته ، ويزورها فى المناسبات الحازية ليشرف على شئونها العمرانية والتجارية والحربية .

ففى سنة ٦٦٢هـ كان خليج الإسكندرية قد استد وامتلأت فوهته بالطمى ، وامتنعت نتيجة لذلك الملاحة فى هذا الخليج ، وانقطعت السفن أن تصل بالتجارة إلى الإسكندرية ، فأصدر بيبرس أوامره إلى الأمير عز الدين أمير جاندار لعمارة هذا الخليج ، فأشرف على إعادة حفره عند مدينة النقيدى ، وأمر ببناء مسجد تذكارى هناك سماه باسم الملك الظاهر ، ويعقب ابن عبد الظاهر على هذا الخبر فيقول أن ملوك الأيوبيين – وخاصة الملك الصالح نجم الدين أيوب – كانوا قد :

(اهتمو بهذا البحر ، وغرموا عليه الأموال ، وما حصل له مقصود ، وباشر ذلك العمل تعاسيف ناظر الدواوين، وأخر الله هذه الحسنة لتكون فى دولة هذا السلطان (بيبرس)) .

وفى الشهر الأخير من نفس السنة (ذى الحجة ٦٦٢هـ) خرج بيبرس من القاهرة متجهًا إلى مدينة الإسكندرية ، وكعادته تخلف فى الطريق للصيد فى برارى مديرية البحيرة ، واتخذ طريقه هذه المرة عبر وادى النطرون (وكان يسمى فى العصر الإسلامى وادى هبيب) ، وزار الأديرة القبطية المتناثرة فى هذا الوادى وانتقل إلى مدينة تروجة، ونظر فى أحوال العربان، ثم انتهى به المسير إلى مدينة الإسكندرية ، وصلى - كما يقول ابن عبد الظاهر -

(فى الجامع الغربى ، وعم جميع الأمراء والمفاردة وخواصه بما فرقه عليهم من الأموال والأقمشة عمل دار الطراز، والاسكرلاط[1] والبندقى وغيره ، وركب يوم السبت وتسابق الأمراء قدامه بالخيول ، ولعب الكرة بميدان الإسكندرية ، وزار الشيخ الشاطبى) .

وعاد بيبرس بعد ذلك إلى القاهرة .

وفى سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) لاحظ بيبرس أن خليج الإسكندرية قد طمرته الرمال فى بعض أطرافه ، فسافر إلى الإسكندرية بنفسه .

(واهتم بحفر خليجها ، وباشر الحفر بنفسه ، فعمل فيه الأمراء وسائر الناس حتى زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج) .

وزار بيبرس الإسكندرية مرة رابعة فى سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) ليشرف على شئونها ، وبعد وصوله إلى المدينة خلع على الأمراء ، وحكل إليهم التعابى والنفقة ، ثم خرج فلعب الكرة ظاهر الإسكندرية .

وفى سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) ورد الخبر بحركة الفرنج إلى ثغور مصر ، فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشوانى ، ونصب على أسوار الإسكندرية نحو مائة منجنيق (لإحكام الدفاع عنها) .

وفى سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) زار بيبرس الاسكندرية زيارة خامسة، ولاحظ أن منارها قد تهدمت أركانه وتشعث بنيانه، فأمر ببناء ما تهدم منه، وأنشأ فى أعلاه مسجدًا مكان قبة كان قد أقامها هناك أحمد بن طولون، ثم أسقطتها الرياح فى سنوات سالفة.

---

(١) أسكرلاط أو أشكرلاط نوع من القماش قرمزى اللون كان يرد من أيرلندة (ecarlate) .

obeikandl.com

الفصل الثالث

الإسكندرية

فى عصر الناصر محمد بن قلاوون

تدل العناية الدائبة التى أسبغها بيبرس على مدينة الإسكندرية على تطور فى تاريخ هذا الثغر المصرى فى عصر المماليك، ولا يوضح هذا التطور إلا نظرة سريعة نلقيها على تاريخ المماليك السياسى.

قضى ملوك بنى أيوب حياتهم كلها فى نضال عنيف مستمر لطرد الصليبيين من الشام، وأدرك الصليبيون من هذا النضال أن مصر هى مركز قوة المسلمين، ولهذا خضعت سياستهم فى النصف الثانى من العصر الأيوبى لتغير واضح، فاتجهوا بحملاتهم عن شواطئ الشام إلى شواطئ مصر، وكانت دمياط هدف هذه الحملات، فهى أقرب الثغور المصرية إلى بيت المقدس مطمح أنظارهم.

ونزلت بدمياط جيوش جان دى بريين فى عهد السلطان الملك الكامل محمد، وجيوش لويس التاسع فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولكن هذين الملكين منيا بالخيبة والفشل، وأسر ثانيهما، وسجن بالمنصورة وقتًا إلى أن أطلق سراحه والدولة الأيوبية توشك أن تحتضر، والدولة المملوكية توشك أن تقوم.

ولم تكد تنتهى حملة لويس التاسع على دمياط حتى «اتفق أرباب الدولة بمصر – وهم المماليك البحرية – «على تخريب مدينة دمياط خوفًا من مسير الفرنج إليها مرة أخرى، فسيروا إليها الحجاريين والفعلة، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة، حتى خربت كلها ومحيت آثارها، ولم يبق منها سوى الجامع، وقد أنشئت بعد ذلك دمياط جديدة جنوبى موقع المدينة القديمة.

فدمياط كانت تعتبر – حتى آخر العصر الأيوبى – ميناء مصر الأول، وكانت عناية ملوك الأيوبيين بها تفوق عنايتهم بثغر الإسكندرية، فلما كثرت غارات الفرنج على دمياط ورأى المماليك أنه من الحكمة هدمها حتى لا تتجدد عليها غارات الصليبيين، ورثتها الإسكندرية، فاصبحت ثغر مصر الأول، وغدت تحتل المكانة الأولى، ولهذا لم يكن من الغريب أن يوليها الظاهر بيبرس هذه العناية الفائقة التى لاحظناها، فيزورها – رغم اشتغاله مدة حكمه بنضال

الصليبيين والمغول – خمس مرات، ويشرف بنفسه على ترميم أسوارها وحصونها، ولا يكاد يسمع بعزم الفرنج على التوجه إليها حتى يقيم على أسوارها مائة منجنيق، ثم هو يعيد حفر خليجها ليسهل نقل التجارة منها وإليها.

وأتم سلاطين المماليك الأول الجهود الحربية التى بدأها بنو أيوب، واستطاع الملك الأشرف خليل بن قلاوون أن يطهر سواحل الشام من الصليبيين، ويطرد بقاياهم عن عكا آخر حصونهم فى سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١).

واستقرت شراذم من بقايا الصليبيين بعد طردهم من الشام فى جزر البحر الأبيض المتوسط، وخاصة رودس وقبرص، وعندما حاولوا أن يغيروا من هذه الجزر على مصر كانوا يتجهون دائمًا إلى مدينة الإسكندرية، ولهذا نلاحظ أن جهود سلاطين المماليك تركزت بعد ذلك فى العناية بثغر الإسكندرية عناية دائبة متصلة.

ففى سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢) – فى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون – حدث بالشرق الأدنى زلزال كبير، وأصاب هذا الزلزال فيما أصاب مدينة الإسكندرية ومنارها وسورها وحصونها، قال المقريزى فى حوادث هذه السنة:

«وقدم الخبر من الإسكندرية أن المنار انشق، وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة، وأن البحر هاج، وألقى الريح العاصف موجه حتى وصل باب البحر، وصعد المراكب على البر، وسقط جانب كبير من السور، وهلك خلق كثير».

ثم روى المقريزى بعد هذا أن ما هدم من السور كان ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجًا، وأن السلطان كتب لوالى الإسكندرية لعمارتها، فعمرها. أما المنار فقد عمره بعد ذلك الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى شهور سنة ٧٠٣ هـ.

ومع هذا فإنه يبدو أن العناية بترميم ما هدم من المنار لم تكن كبيرة فقد زاره ابن بطوطة فى رحلته الأولى إلى المشرق فى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥) – أى بعد حادث الزلزال بثلاث وعشرين سنة – وقرر أنه رأى جزءًا منه مهدمًا، قال: «قصدت المنار.. فرأيت أحد جوانبه متهدمًا»..

ولعل السر فى هذا أن الناصر كان قد اعتزم إقامة منار جديد بازاء المنار القديم، لهذا أهمل هذا المنار القديم طول عهده حتى نالت منه يد البلى والخراب، ولم يعد صالحا للاستعمال البتة، فلما زاره ابن بطوطة فى رحلته الثانية فى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩م – ١٣٥٠م) وصفه بقوله:

«وقصدت المنار عند عودتى إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة، فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله، ولا الصعود إلى بابه،وكان الملك الناصر – رحمه الله – شرع فى بناء منار مثله بازائه، فعاقه الموت عن إتمامه».

ولهذا الوصف أهمية خاصة، فهو يشير إلى معلم جديد من معالم المدينة وهو المنار الجديد الذى أنشئ بازاء المنار القديم - أى فى نهاية رأس لوكياس أو ورأس السلسلة - وأن هذا المنار بدئ فى بنائه فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، وأنه تم فى عهود من أتى بعده من السلاطين، ويؤكد أقوال ابن بطوطة أننا نرى هذا المنار الجديد مثبتًا واضحًا فى المصورات والخرائط التاريخية التى رسمت للمدينة بعد ذلك بقليل فى القرن الخامس عشر الميلادى وما بعده، وقد سميت المنارة الجديدة باسم برج السلسلة، وسمى البرج والرأس بالسلسلة، لأنه كان موضع مأصر بحرى، أى أنه كان يمتد منه سلسلة ضخمة من الحديد لقفل البوغاز، ومنع سفن الأعداء من الدخول إلى الميناء.

أما أكبر هدية قدمها الناصر لمدينة الإسكندرية فهى الخليج الناصرى، فقد بلغه فى سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) - إبان سلطنته الثالثة - أن خليج الإسكندرية قد طمرته الرمال، فلم تعد مياه النيل تصل إلى المدينة، فأصبح سكانها يشربون من المياه المخزونة فى الصهاريج، وأن السفن لم تعد تصل بالمتاجر إلى الإسكندرية وسافر متولى الإسكندرية إلى القاهرة، وقابل السلطان الناصر، وبين له المنافع التى تعود على المدينة خاصة، وعلى الدولة عامة، لو أعيد حفر الخليج.

وأول هذه المنافع - كما قال - حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية فى المراكب،وفى ذلك توفير للكلف وزيادة فى مال الديوان، والمقصود بالديوان هنا (ديوان الخاص) أى الديوان الذى يشرف على الأموال الخاصة للسلطان، وكانت الإسكندرية أهم موارد هذا الديوان.

وثانى هذه المنافع عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بإنشاء السواقى، وتعمير الضياع وزراعتها، فينمو الخراج بهذا نموا كبيرًا.

وثالثها انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم وشرب مائه دائمًا.

وأعجب السلطان بالفكرة، وندب الأمراء للإشراف على تنفيذ المشروع، وكان يشترك فى حفر الخليج أربعون ألف رجل، «وأفرد لكل أهل ناحية قطعًا يحفرونها حتى كمل».

وتنفيذ هذا المشروع من أهم الأعمال التى تمت فى عصر الناصر محمد بن قلاوون - إن لم يكن أهمها - فقد انتقل بمخرج الخليج من الضهرية (أو الظاهرية - نسبة للظاهر بيبرس - شمال كفر الزيات الحالية بقليل) إلى العطف حيث تخرج ترعة المحمودية الحالية، وأنشأ الجزء الواصل من العطف إلى كفر الحمايدة إنشاءًا، ثم أعاد حفر وتطهير القسم الثانى من الخليج الواصل من كفر الحمايدة إلى الإسكندرية.

وعظمت المنفعة بتنفيذ هذا المشروع:

«فإن السفن جرت فيه طوال السنة، واستغنى أهل الإسكندرية عنَ شراب ماء الصهاريج وبادر الناس للعمارة على جانبى الخليج، فلم يمض غير قليل حتى استجد عليه ما يزيد على مائة ألف فدان، زرعت بعد ما كانت سباخًا، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والسمسم، وفوق الأربعين ضيعة، وأزيد من ألف غيط بالإسكندرية وعمرت منه عدة بلاد كثيرة، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد فيه».

ويعنينا من هذا الوصف ما يشير إليه المقريزى من آثار حفر هذا الخليج على المدينة تجاريًا وعمرانيًا، وإمكان زراعة ألف غيط جديد داخل مدينة الإسكندرية، وهذه حقيقة توكدها مصورات المدينة، فالأجزاء الجنوبية من المدينة تغطيها - فى هذه المصورات التاريخية - الحقول والبساتين.

وظل هذا الخليج - الذى سمى الناصرى منذ ذلك الحين - يجلب هذه المنافع إلى مدينة الإسكندرية ومديرية البحيرة ستين سنة كاملة،أى إلى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨) حيث قلت العناية بتطهيره، فطمرته الرمال مرة أخرى، «وانقطع الماء عنه، وصار الماء لا يدخل إليه إلا فى أيام زيادة ماء النيل فقط، ثم يجف عند نقصه، فتلفت من أجل هذا أكثر بساتين الإسكندرية وخربت، وتلاشى كثير من القرى التى كانت على هذا الخليج» وسيظل الخليج على هذه الحال السيئة ستا وخمسين سنة أخرى إلى أن يتداركه السلطان الملك الأشرف برسباى بعنايته،فيعيد حفره فى سنة ٨٢٦هـ (١٤٣٢ م).

انتعشت مدينة الإسكندرية بعد إنشاء هذا الخليج الناصرى، ونشطت تجارتها الداخلية والخارجية، فعمرت أسواقها، وكثرت مبانيها، وزادت عناية السلطان بتحصينها، فلما زارها الرحالة ابن بطوطة بعد إنشاء الخليج بخمسة عشر عامًا بهرته بكل ما فيها، ووصفها بقوله:

«هى الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهى الفريدة تجلى سناها، والخريدة تجلى فى حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انتهاؤها.. ولها المرسى العظيم الشأن، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط بالهند، ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك،ومرسى الزيتون ببلاد الصين..»

فى سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) وبعد زيارة ابن بطوطة الأخيرة للإسكندرية بسنتين، وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، قامت فى الإسكندرية فتنة خطيرة كادت تسوء عاقبتها لولا أن تداركها السلطان بحكمته، وموجز هذه الفتنة أن تاجرًا فرنجيًا تنازع مع رجل من أهل الإسكندرية، واستغاث كل من الرجلين بشيعته، فاتسع الخرق، وخرج وإلى الإسكندرية ليخمد الفتنة، وكان خارج أسوار المدينة عدد كبير من سكان المدينة.

«فلما وافى الليل تزاحموا عند الأبواب يضجون ويصيحون يريدون الدخول وذهب أعيان البلد إلى الوالى، ومازالوا به حتى أمر بفتح الأبواب، فلما كان غد ذلك اليوم تظاهر الأهلون، وقصدوا إلى دار الوالى، وقاتلوا جنده إلى أن اضطر إلى تسريح الطائر بخبر هذه الفتنة إلى السلطان بالقاهرة».

وأرسل السلطان وزيره، وبعض أمرائه إلى الإسكندرية، فمازالوا يعملون الحيلة إلى أن أخمدوا الفتنة وعاقبوا مثيريها، وكان أخوف ما يخافه السلطان أن يقوى الثائرون، فيطلقوا سراح الأمراء المسجونين (وكان بالإسكندرية سجن يرسل إليه السلطان كل من فكر فى الخروج عن طاعته من الأمراء) ويستولوا على الأسلحة المعدة للجهاد (وكان بالإسكندرية خزانة للسلاح بها قاعات كثيرة، أنشأ كلا منها سلطان من السلاطين السابقين وسماها باسمه).

لهذا كان أهم ما عنى به الوزير بعد إخماد الفتنة أن استعرض ما بالثغر من السلاح، فوجده «ستة آلاف عدة كاملة، جعلها فى قاعة وختم عليها»، ثم عاد وفى صحبته الأمراء المسجونون بالإسكندرية، فأودعهم سجن القلعة بالقاهرة.

ويبدو أن هذه الفتنة كانت بالغة الخطر، وأنها هزت كيان الدولة، فقد سرت أخبارها إلى الأقطار المجاورة وتحدث عنها الناس هناك، فقد سجل ابن بطوطة فى رحلته خلاصة حوادثها فى دقة لا تختلف كثيرًا عما أورده المؤرخون المصريون فى مطولاتهم، وختم وصفه بقوله:

«وبلغنا خبر ذلك بمكة – شرفها الله».

obeikandl.com

الفصل الرابع
الإسكندرية
فى عصر الأشرف شعبان

توفى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م)، وخلفه على عرش مصر عدد كبير من أولاده وأحفاده لم تكن لهم شخصيته الفذة، ولاهمته العالية، بل كان معظمهم أطفالاً صغار السن، فاستبد بشئون الملك دونهم كبار الأمراء من المماليك، وكثرت المنافسات بين هؤلاء الأمراء حتى شغلهم النزاع فى سبيل الاستئثار بالسلطان عن العناية بشئون مصر عامة، والثغور خاصة.

وكانت الدعوة لتجديد الحروب الصليبية ضد مصر قد قويت ونشطت حينذاك فى جزر البحر الأبيض وفى ممالك أوربا المختلفة، وكانت الرسل تتوافد على مصر لدراسة أحوالها الداخلية، وكتبت التقارير المختلفة تصف ما كانت تعانيه مصر من اضطراب داخلى صرف الحكام عن العناية بأمور الدفاع والأسطول، وخاصة فى الإسكندرية.

وكانت جزيرة قبرص خير مكان فى شرقى البحر الأبيض المتوسط يتخذ لمراقبة سواحل مصر والشام أو للإغارة عليها.

وكان ملك قبرص بيير، أو بطرس لوزنيان قد خرج من جزيرته وطاف بممالك أوربا المسيحية يثير حماس ملوكها وأهليها، ويطلب منهم أن يقدموا له كل المساعدات الممكنة لإعداد حملة صليبية جديدة على مصر، ولكنه وجد معظم هؤلاء الملوك قد شغلوا بأنفسهم وبمصالح دولهم عن الفكرة الصليبية، فلم يلق منهم غير الوعود، ومع هذا فقد أمده اسبتارية رودس وجمهوريتا جنوة والبندقية ببعض العون.

وخرج بطرس الأول لوزنيان بأسطول ضخم يحمل جيشه الكبير قاصدًا إلى الإسكندرية، فوصل إلى مياهها يوم الخميس ٢١ محرم ٧٦٧هـ (٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥م).

وفى صباح يوم الجمعة خرج أهالى الإسكندرية إلى الفضاء المواجه لجزيرة فاروس خارج الأسوار، وانضم إليهم الأعراب الوافدون من الصحراء، وأخطأ وإلى المدينة فخرج هو كذلك وانضم إلى الأهلين يريد الدفاع عن المدينة، فنصحه بعض المغاربة بالعودة وبإصدار الأوامر إلى الأهالى كى يدخلوا المدينة ليحتموا جميعًا بأسوارها ويدافعوا عنها من وراء هذه الأسوار.

ولكن الوالى لم يستمع لهذه النصيحة، فقد حسب أنه يستطيع من موقعه على الشاطئ أن يمنع الفرنج من النزول إلى البر،ولكن القبارصة كانوا أكثر استعدادًا وتنظيما، واستطاعوا أن ينزلوا إلى البر، وبعد مناوشات قليلة انتصروا على جموع المحتشدين، فأصيب الأهالى بالذعر الشديد، وأسرعوا بالفرار – وفى مقدمتهم الأمير جنغرا والى المدينة – إلى دمنهور أوإلى القاهرة، واقتحم القبارصة أبواب المدينة ودخلوها، وانبثوا فى شوارعها ومتاجرها ومنازلها ومساجدها وكنائسها، يقتلون وينهبون ويخربون، وينقلون كل مسروقاتهم إلى سفنهم..

وهكذا أمضى القبارصة فى الإسكندرية أربعة أيام، حتى إذا أحسوا قرب وصول النجدات الحربية من القاهرة فروا مسرعين إلى سفنهم التى أثقلت بالمنهوبات حتى اضطروا إلى إلقاء بعضها فى البحر، خوفًا على سفنهم من الغرق، وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالى الإسكندرية، منهم – كما يقول النويرى المؤرخ السكندرى المعاصر –:

«المسلم والمسلمة، واليهودى واليهودية، والنصرانى والنصرانية، وأخذوا من الأموال ذهبًا وحريرًا وبهارًا وغير ذلك ما لا يحد ولا يوصف».

وقد يبدو غريبًا أن تسقط المدينة فى أيدى الأعداء بهذه السرعة وهذه السهولة، رغم وما كان يحيط بها من أسوار حصينة وأبراج منيعة، ومع أن خزائن أسلحتها كانت عامرة بالعدة والعتاد، ولكننا نجد التفسير فى ذلك الاضطراب الذى كان يسود مصر فى ذلك الحين، فقد كان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره، هو السلطان الملك الأشرف شعبان، وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى، وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين، وزاد الطين بلة أن والى الإسكندرية الأصيل، وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام كان متغيبًا عن المدينة يؤدى فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر اقل دربة وأصغر مرتبة، هو الأمير جنغرا.

نجح بطرس الأول لوزنيان فى تخريب الإسكندرية ونهبها،ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء على مصر أو البقاء فى الإسكندرية، بل أسرع بالفرار حين شاهد طلائع المدد القادم من القاهرة، وصدق عليه قول النويرى السكندرى حين وصفه بأنه جاء إلى المدينة لصا وخرج منها لصًا.

وقد شعر السلطان الملك الأشرف شعبان منذ تلك الواقعة أن الإسكندرية قد غدت محط أنظار الفرنج، ومنبت الخطر الذى قد يهدد الدولة كلها إذا أزمع الأعداء العودة إليها، فزادت عنايته بها، ورفع مكانتها، وزاد فى قدر حاكمها، فبعد أن كانت الإسكندرية ولاية يليها وال من أمراء الطبلخانة، جعلها الأشرف شعبان فى نفس السنة التى غزاها فيها القبارصة (أى ٧٦٧هـ – ١٣٦٥م). وإنما بعد رحليهم عنها – نيابة يحكمها نائب عن السلطان من الأمراء المقدمين.

والمقصود بالنائب فى مصطلح العصر المملوكى أنه ينوب عن السلطان فى حكم المدينة. لهذا أصبح لنائب الإسكندرية منذ هذا التعديل ما للسلطان فى القاهرة، فله دار النيابة - وهى مقر حكمه - وتحت يده حاجب أمير عشرة، وحاجب جندى، ووال للمدينة، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر، وموقّع يسمى كاتب السر، وناظر يشرف على الأموال الديوانية، معه مستوف، وتحت يده كتاب وشهود.

وأصبح للمدينة أيضًا محتّسب خاص يشرف على شئونها الاقتصادية والاجتماعية، وتعدد قضاتها - شأنها فى ذلك شأن القاهرة - فأصبح بها ثلاثة قضاة - اثنان مالكيان والثالث حنفى.

وجعل فى دار النيابة هذه كرسى للسلطنة، كما رسم بأن يكون للنائب مواكب رسمية خاصة تسير فى طريق محدد شأن المواكب السلطانية بالقاهرة.

فكان موكب نائب الإسكندرية يبدأ من دار النيابة، يتقدمه الشبابة السلطانية، ويتبعه الأمراء والجند، فيخرج من باب البحر، ويسير خارج المدينة قدر ساعة، ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة[1]. فإذا كان الموكب من المواكب التى يتلوها السماط وضع كرسى السلطنة صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر، ووضع عليه سيف بنمجاة سلطانية، ومد السماط تحته، وجلس النائبُ فى ناحية من الإيوان بجوار شباك يطل على الميناء، وجلس رجال الدولة بترتيب خاص، شأنهم فى ذلك شأن رجال الدولة فى مجلس السلطان بالقلعة، فجلس القاضى المالكى عن يمين النائب، والقاضى الحنفى عن يساره، والناظر تحته، والموقع أو كاتب السربين يديه، ورؤوس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص والشكاوى فيقرؤها الموقع على النائب، ويفصل هذا فيها بحضرة القضاة، ثم ينصرف المجلس، وبانصرافه ينتهى الموكب.

---

(١) كانت دار النيابة هذه بدار السلطان، وهى دار قديمة كانت موجودة منذ العصر البيزنطى، ثم جددت أكثر من مرة فى العصر الإسلامى، ويبدو أنها كانت مخصصة لنزول السلطان إذا أتى لزيارة الإسكندرية، ثم كانت تفتح للنائب فى المناسبات الرسمية، كما كان ينزل بها ويسكنها بعض النواب، وممن سكنها منهم الأمير خليل بن شاهين الظاهرى وقد وصفها وصفًا رائعًا فى كتابه «زبدة كشف الممالك» قال: «وبالثغر مكان يعرف بدار السلطان، وبها دور متسعة، وهى عجيبة من عجائب الدنيا، وبها آدر عظيمة، وبها تخت الملك، وقيل إنه لم تعمر دار وسعها، أنشأها فى الأصل المقوقس، ثم بعده جوهر الموتفكى (الصقلى)، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب، ثم بعده الملك ناصر بن برقوق، وبها من الأعمدة الرخام الملونة، والقياع المفروشة بالرخام الملون، والأماكن المزخرفة، والبساتين الحسنة ما يطول شرح وصفه، وهى مشرفة على البحر المحيط لا يسكنها إلا السلاطين خاصة، ولم تزل إلى الآن (ق ٩ هـ) مقفولة، وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف على السكنى فيها حين كنت نائب السلطنة الشريفة بالثغر، فأمر لى بذلك، ولم يكن سبق لأحد ذلك من نواب الثغر».

وهذا الوصف للموكب – وإن كان يحدد موقع دار النيابة تحديدًا دقيقًا له أهمية خاصة عند التعرف على طبوغرافية المدينة في هذا العصر المملوكى – فهو ينص كذلك على أن الموكب كان يسير بعد خروجه من باب البحر خارج المدينة قدر ساعة، أى أن هذه الرقبة التى تصل المدينة بجزيرة فاروس كانت حتى أواخر القرن الثامن الهجرى لا تزال تعتبر من أرباض المدينة، وأنها لم تكن قد سكنت بعد، وستفيدنا هذه الحقيقة عند تتبع طبوغرافية المدينة وما طرأ عليها فى العصر العثمانى، فإن العمران سيتحول فى هذا العصر عن المدينة، ويمتد إلى هذه الرقبة ويستقر بها، بحيث تصبح هى وحدها المدينة كل المدينة.

أضفى هذا التغيير على المدينة صفة جديدة، إذ اعترف بها عاصمة ثانية للدولة، بها كرسى للسلطنة، ويحكمها أمير كبير هو نائب عن السلطان بها، ويقيم العدل بها قضاة مستقلون ويشرف، على أسواقها واقتصادياتها محتسب خاص، وزيد فى عدد حاميتها، وشحنت بالعدة والسلاح، وزودت بأحدث معدات الدفاع، كالمدافع – وكانت حديثة الاختراع – فقد روى القلقشندى أنه رأى بنفسه فى الإسكندرية:

«فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام مدفعًا قد صنع من نحاس ورصاص، وقيد بأطراف الحديد، رمى عنه فى الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماة، فوقعت فى بحر السلسلة خارج باب البحر وهى مسافة بعيدة».

وفى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م – ١٣٦٩م) كان السلطان الملك الأشرف شعبان قد شارف البلوغ، وقارب السادسة عشرة من عمره، واستطاع أن يدبر شئون الحكم بنفسه، فرأى أن يذهب إلى الإسكندرية ليشرف على حصونها ومنشآتها وأسوارها ووسائل الدفاع عنها، وقد شاهد هذه الزيارة المؤرخ السكندرى محمد بن القاسم النويرى، ووصفها وصفا مسهبًا.

ولهذا الوصف قيمة خاصة، لأنه يتضمن بيانات نادرة عن تاريخ المدينة وطبوغرافيتها فى ذلك الوقت، وبمراجعته نستطيع أن نرسم مصورا تفصيليا للمدينة وأسوارها وأبوابها، والكثير من أحيائها ومعالمها وشوارعها فى ذلك العصر.

فهو يذكر أن السلطان دخل المدينة من باب رشيد، ثم يعدد الأحياء التى مر بها إلى أن وصل إلى باب البحر المقابل للميناء الشرقى، فيقول إنه سار – بعد دخوله من باب رشيد – فيما كان يسمى وقتذاك بالمحجة العظمى – وهو ما نرجح أن يكون شارع فؤاد الأول الحالى أو الطريق الكانوبى القديم – ثم مر بمسجد أبى الأشهب، وعطف عطفته فمر على دار

ابن الجباب، ومنها إلى جفار القصارين، إلى الصادر، إلى أن خرج من باب البحر، فنثر عليه مقابل دار العدل ودار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس.

هذه أحياء ومعالم قد زالت ولم يعد لها أثر فى الإسكندرية الحديثة، وإنما بقيت لها دلالاتها الهامة عند كتابة تاريخ المدينة الاقتصادى.

فالنويرى يذكر أن الطريق إلى باب البحر كان فى نهايته وبالقرب من هذا الباب جفار القصارين، وهى ساحة يباشر فيها القصارون تقصير الثياب، أى دقها وضربها، وهى مرحلة من مراحل صناعة النسيج فى تلك العصور.

وبالقرب من ذلك الجفار معلمان اقتصاديان هامان أحدهما: له أهمية تجارية، وهو الصادر، أى مخازن التجارة الصادرة إلى الخارج تحملها سفن الفرنجة التى كانت تفد إلى الميناء الشرقى وحسب، ولا تجرؤ على الدخول فى الميناء الغربى الخاص بسفن المسلمين.

وثانيهما له أهمية صناعية، وهو دار الطراز، ودار الطراز مصطلح كان يطلق فى تلك العصور على مصنع النسيج، وكتب التاريخ تذكر أن مدن مصر الشمالية: الإسكندرية، ودمياط، وشطا، وتنيس، ودبيق، وتونة، وبورة.. الخ. كانت مراكز هامة لهذه الصناعة، كما تذكر أنه كان يقوم بها دور طراز خاصة، وبها تنسج ملابس السلطان وخاصته وحريمه والخلع التى يخلعها على رجال الدولة فى المناسبات الخاصة؛ ودور طراز عامة وبها تنسج الأقمشة الشعبية.

ويتضح من كلام المؤرخين كذلك أن المدن المصرية الأخرى كانت قد فقدت أهميتها فى العصر المملوكى كمراكز لصناعة النسيج، وبقيت الإسكندرية ولها الصدارة فى هذه الصناعة، حتى غدت لمنسوجاتها شهرة خاصة فى الأسواق، فابن الحاج يذكر فى كتابه «المدخل» أن بعض التجار.

«كانوا يشترون القماش الخام الأبيض من بلاد مختلفة مما يشبه قماش الإسكندرية ثم يقصرونه بالإسكندرية، ويبيعونه على أنه اسكندرانى، وهذا غش لأن المشترى لو علم أنه من الإسكندرية لم يرض به، ولم يعط من الثمن إلا دون ما أعطاه أولاً».

وقد ذكر النويرى فى وصفه أن السلطان الأشرف شعبان قد زار دار الطراز، «وأتى مواضع أنوالها واستعمالاتها، فرأى كل صانع ينسج على منواله (نوله) من أصناف الأقمشة المنمقة، والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان، المختلفة الألوان.. وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طائر».

ويفهم من وصف النويرى أيضًا أن الإسكندرية كان يحيط بها سوران: أحدهما داخلى مما يلى البلد، وهو السور الرئيسى، وثانيهما خارجى يشرف على ما يحيط بالمدينة، وكان لكل باب من أبواب المدينة ثلاثة أبواب متينة مصفحة بالحديد، يؤكد هذا خليل بن شاهين الظاهرى نائب الإسكندرية فى القرن التاسع الهجرى، فقد قال عند وصفه للمدينة فى كتابه «زبدة كشف المماليك»: «وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه، يشتمل على سورين محكمين بها عدة أبواب، يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة، وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل باب منها ثلاثة أبواب من حديد»، ويؤكده ذلك النويرى السكندرى فهو يقول عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شعبان عند دخوله المدينة:

«إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد.. ثم سار وخرج من باب البحر الثانى، ثم الثالث، فشاهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج».

وكان للسور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع مشحونة بالعدد والأسلحة والأتراس، وبأعلاها المناجيق والمكاحل، وعل كل برج أعلام وطبلخانات وأبواق وحرسية.

وكان للسور الخارجى أبواب عدة، أهمها:

باب رشيد فى شرقى المدينة، وهو المؤدى إلى الطريق المنتهية إلى مدينة رشيد.

وباب البحر، وكان يواجه الميناء الشرقى.

والباب الأخضر (أو باب القرافة) فى غربيها، وكان لا يفتح إلا يوم الجمعة ليخرج الناس منه لزيارة القرافة.

وباب سدرة (أو باب العمود) فى جنوبها.

وكانت العادة القديمة إذا زار سلطان من سلاطين المماليك المدينة أن تفك أبوابها وتلقى على الأرض إلى أن يرحل فيعاد تركيبها.

وذكر النويرى أن الأشرف شعبان لما خرج من باب البحر الخارجى شاهد الخندق الجديد الذى أنشأه نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام بعد وقعة القبارصة، «ولم يكن فى ذلك المكان خندق»، كما ذكر أنه كان هناك خندق آخر يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر.

وفى وصف النويرى تحديد لبعض معالم المدينة الهامة الأخرى، فهو يذكر أن دار صناعة السفن كانت تقوم بالقرب من دار الطراز، وأنه كان بالمدينة داران للصناعة؛ إحداهما بالميناء الشرقى، والثانية بالميناء الغربى.

كما كان بها قصر للسلاح بالقرب من الباب الأخضر، وهو قصر ذو قاعات كثيرة مملوءة بالأسلحة والعدة والعتاد، أنشأ كلامنها سلطان من سلاطين المماليك، وسماها باسمه، وقد رسم السلطان الملك الأشرف شعبان - فى زيارته هذه - أن تنشأ بالقصر قاعة جديدة تحمل اسمه، وكان لهذا القصر مسجد ملحق به.

وبالقرب من الباب الأخضر أيضًا يقوم ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى، وبجواره مسجد تلميذه القاضى سند بن عنان، وعلى مسافة منه الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة فى ذلك العصر، وبجواره كانت تقوم دار السلطان.

هذه هى معالم المدينة الهامة التى أشار إليها النويرى فى وصفه، غير أننا نلاحظ أنه أهمل الإشارة إلى مؤسسة حكومية هامة تعنى الذين يريدون التاريخ للإسكندرية من الناحية الاقتصادية، ونقصد بهذه المؤسسة دار الضرب السكندرية، فإن المتواتر فى الكتب التاريخية أنه كان بمصر داران للضرب، إحداهما فى القاهرة، والثانية فى الإسكندرية، ولسنا نعرف على وجه التحديد فى أى أحياء المدينة كانت تقوم هذه الدار، وأغلب الظن أنها كانت تقوم فى الحى الذى كان يضم المنشآت الحكومية السالف ذكرها: دار السلطان، وقصر السلاح.

ولسنا نعرف على وجه التحديد متى أنشئت هذه الدار بالإسكندرية، وإنما نستطيع أن نقول - على وجه التقريب - أنها أنشئت فى العصر الفاطمى، فإن أقدم نص يشير إلى وجودها هو ما ذكره ابن مماتى - وهو مؤرخ عاصر نهاية الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية - فقد قال فى كتابه «قوانين الدواوين» عند كلامه عن دور الضرب: «المستمر الآن فى الديار المصرية داران: دار بالقاهرة المحروسة، ودار بالإسكندرية - حماها الله -»

وقد أشار القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» إلى وجود هذه الدار بالإسكندرية فى عهد الأشرف شعبان، فقد ذكر أن نائب المدينة الأمير صلاح الدين بن عرام قد ضرب بالإسكندرية بعد السبعين والسبعمائة دنانير زنة كل دينار منها مثقال، على أحد الوجهين منه: «محمد رسول الله»، وعلى الوجه الآخر: «ضرب بالإسكندرية فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين، عز نصره».

وليس من المعروف حتام استمرت هذه الدار تؤدى عملها، وإنما نستطيع أن نقرر أنها ظلت موجودة حتى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م) فإن ابن الحاج - وهو من كتاب هذا القرن - يقرر أن السكة المضروبة بالإسكندرية كانت تختلف فى قيمتها عن السكة المضروبة فى القاهرة فهو يقول: «وليست دراهم الإسكندرية كدراهم الديار المصرية»، كما يذكر المقريزى فى كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة». أن الظاهر برقوق قد «اتخذ بالإسكندرية دار ضرب لعمل

الفلوس»، وهذا النص قد يعنى أن الدار القديمة قد تلاشى أمرها فى عهد برقوق، فأنشأ فى عهده دارًا جديدة غيرها، وقد يعنى أن الدار القديمة كانت تضرب الدنانير والدراهم وحسب، فرأى أن ينشئ إلى جانبها دارا جديدة لضرب الفلوس.

هذه هى الإسكندرية حتى أواخر القرن الثامن الهجرى (١٤ م)، غير أننا نلاحظ أن غزوة القبارصة كانت بالغة الأثر فى تاريخ المدينة، فقد قضت على الكثيرين من سكانها قتلاً وأسرا، كما خربت الكثير من معالمها، أما أهلوها الذين فروا منها أثناء الوقعة فإنهم لم يعودوا إليها جميعًا، فقل سكانها واتضعت أحوالها، يقرر هذه الحقيقة المقريزى بقوله:

«فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث،ومنها اختلت أحوالها، واتضع أهلها، وقلت أموالهم،وزالت نعمهم».

الفصل الخامس

شفق الغـروب

فى آواخر العصر المملوكى

فإذا كان القرن التاسع الهجرى فقد سارت الإسكندرية نحو التأخر والخراب خطوات حثيثة، وذلك أن هذا القرن لم يشهد من السلاطين العظماء المصلحين إلا عددًا قليلا جدًا، لهذا نلاحظ أن عناية هؤلاء السلاطين بالإسكندرية كانت قليلة، فلم يزرها أو يلحظها بعنايته إلا ثلاثة منهم.

أولهم الناصر فرج بن برقوق، وقد زارها فى سنة ٨١٤هـ (١٤١١م) فأوكب بها موكبًا حافلاً، وحملت القبة والطير على رأسه، ومما وقع له أنه لما شق مدينة الإسكندرية وقف له بعض التجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض، فلما قرأ تلك القصة رسم بأبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة، وكتب لهم بذلك مرسومًا شريفًا، فارتفعت الأصوات بالدعاء.

وفى سنة ٨٢٦هـ (١٤٢٢) عنى الأشراف برسباى بإعادة حفر الخليج، وكانت قد طمرته الرمال وتعطلت السفن عن السير فيه.

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥م)، فى سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) عنى السلطان الملك الأشرف قايتباى بالإسكندرية عناية خاصة، فزارها فى تلك السنة، واحتفلت المدينة بمقدمه احتفالاً عظيمًا، وقد وصف هذه الزيارة المؤرخ المصرى ابن أياس، فذكر أن السلطان:

«شق المدينة فى الموكب الحافل، وكان له يوم مشهود، ثم أن بعض تجار الفرنج نثر على رأسه ألف بندقى، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس، حتى أدركه الأمير تمراز وبيده عصا، فضرب الناس حتى خلص السلطان، ومشى، واستمر فى ذلك حتى خرج من باب البحر الذى هناك فنزل، بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح».

وأهم ما ورد فى وصف ابن اياس أن المنار القديم كان قد ناله ما نال المدينة نفسها من إهمال، فتهدمت أركانه وتشعث بنيانه تمامًا، فأمر الأشراف قايتباى - فى مقدمته هذه - أن

يبنى مكانه برج جديد هو ما عرف فيما بعد ببرج قايتباى، ثم طابية قايتباى، التى لا تزال باقية حتى اليوم، قال ابن إياس إتمامًا لوصفه:

«ثم أنه توجه نحو المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجًا، فبنى به برجًا عظيما وهو الموجود الآن..».

وبعد سنتين من هذه الزيارة تم بناء هذا البرج، فرحل قايتباى إلى الإسكندرية لمشاهدته ومشاهدة برج آخر بناه فى رشيد، وقد روى أخبار هذه الزيارة أيضًا ابن إياس، قال:

«وكان سفر السلطان إلى الإسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هنالك، وقد انتهى العمل فيه، فتوجه إليه ليرى هيئته، ثم توجه إلى رشيد، وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الإسكندرية مكان المنار القديم، فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجمل الآثار الحسنة».

ثم استطرد بعد هذا فوصف هذا البرج فى شىء من التفصيل، قال:

«وقيل إن صفة بنيان هذا البرج [1] أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج، وأنشأ بهذا البرج مقعدًا مطلا على البحر ينظر منه مسيرة يوم إلى المراكب وهى داخلة إلى الميناء».

«وجعل بهذا البرج جامعًا بخطبة، وطاحونًا، وفرنًا، وحواصل شحنها بالسلاح، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلاً ونهارًا لئلاً تطرق الأفرنج الثغر على حين غفلة، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دائمًا، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر، وجعل شادًا من خواصه وهو باش عليهم.. وقيل إن السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار، وأوقف عليه الأقاوف الجليلة، وجاء من أحسن الآثار».

---

(١) برج أو طابية قايتباى لا تزال قائمة فى مكانها حتى اليوم، وقد أصبحت منذ إنشائها معلمًا من أهم المعالم المميزة للمدينة، وإن كانت قد نالها شىء من التغيير، وخاصة زوال مسجدها الذى كان يبدو واضحًا بمئذنته العالية فى المصورات التى رسمت للمدينة فى القرون ١٦ و١٧ و١٨ ، وقد بلغت نفقات إنشاء هذا البرج نحو التسعين ألف جنيه، وكان يوجد بفنائه الداخلى مساكن للجند، كما كان به مسجد وبالمسجد ضريح، يزعم العامة بأنه ضريح قايتباى، وهذا خطأ واضح لأن قايتباى مدفون فى مسجده المعروف بصحراء قايتباى خارج القاهرة، وقد عنى بهذا البرج السلطان الغورى عندما أحس قرب الخطر العثمانى، فملأها بالسلاح والعتاد، وأصدر فى عام ٩٠٧هـ (١٥٠١م) مرسومًا ينص على عدم السماح بإخراج سلاح ولا مكاحل ولا بارود منها، وأن من يخالف ذلك يشنق على بابها، ولا يزال نص هذا المرسوم مثبتا حتى الآن فوق المدخل الثانى لهذه القلعة.

ورغم هذه العناية التى بذلها قايتباى لتحصين المدينة، ورغم هذه الأموال التى صرفها لبناء هذا البرج، فإنه لم يلحظ هو ومن تبعه من السلاطين شئون المدينة العمرانية والاقتصادية بعناية مماثلة، فظلت أحوالها فى تقهقر وأمورها فى تأخر وتدهور.

وفى صحوة الموت، والدولة المملوكية فى مصر والشام توشك أن تنهار، أدرك السلطان الغورى ما للإسكندرية من خطورة وأهمية فى الدفاع عن مصر، وخاصة أن خطرًا جديدًا كان يلوح فى الأفق وقتذاك، وهو خطر الدولة الإسلامية الفتية الناشئة، دولة الأتراك العثمانيين.

وبدأ الغورى فى أوائل سنة ٩١٦هـ (١٥١٠) يفكر فى الذهاب إلى الإسكندرية للإشراف على أبراجها وحصونها وأسوارها، وإصلاح ما فسد منها، غير أن الوقت كان وقت فيضان النيل، والسفر برًا إلى الإسكندرية عسير، فسافر بالنيابة عنه أحد أمرائه، ولبث الغورى ينتظر حتى ينتهى موسم الفيضان وهو لا ينى عن التفكير فى الإعداد لهذه الرحلة، ومما اتخذه فى هذا الشأن أن ذهب فى تاسع عشر شعبان سنة ٩١٦هـ إلى المطرية.

«وكان المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجبس فى الأرض صفة مدينة ثغر الإسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها وهيئة سورها والمنار التى كان بها، وقدر عرضها وطولها، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها وتفرج عليها، ثم عاد إلى القلعة من يومه».

وهذا نص نادر وهام لأنه – إلى جانب ما يمدنا به من معلومات عن ثغر الإسكندرية – يبين فى وضوح كيف كان يعمل المهندسون المصريون فى العصر الإسلامى، وأنهم كانوا يقومون بإعداد الرسوم والخرائط والتصميمات لمشروعاتهم قبل تنفيذها.

وفى ذى القعدة من نفس السنة رحل الغورى إلى الاسكندرية، فكشف أحوالها وحصونها ولم يلبث بها ألا أيامًا قليلة، ثم عاد إلى القاهرة.

وفى سنة ٩٢٠هـ (يناير ١٥١٥م) زار الغورى الإسكندرية للمرة الثانية، فدخلها فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، وقد وصف هذه الزيارة فى تفصيل المؤرخ المعاصر ابن إياس، ووصفه ينطق فى أكثر من مكان بأن المدينة كانت قد وصلت فى تأخرها وخرابها إلى الحضيض، فهو يقول:

«فلما شق (أى الغورى) المدينة زينت له زينة فشروية، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ فى غاية الترحل والخراب».

ويقول فى موضع آخر:

«ولم يكن بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار، لا من المسلمين ولا من الفرنج، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب ووجود القباض، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة، وآل أمرها إلى الخراب، حتى قيل: «طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة، والبقية خراب لم تفتح، وكانت الإسكندرية من أجل مدائن الدنيا».

ولم يمكث الغورى بالإسكندرية فى هذه المرة غير يومين وليلتين، ولم يفعل فى خلالها غير أن:

«توجه إلى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى، فطلع فى البرج هو والأمراء، وأرموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التى بثغر الإسكندرية، وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل».

وكانت الأمور تتعقد فى سرعة غريبة بين مصر والدولة العثمانية، والعلاقات بينهما تسير من سيء إلى أسوأ، ففى شعبان ٩٢١هـ (١٥١٥م) عاد إلى مصر رسول كان قد أرسله الغورى إلى ملك التتار، وأخبر بأنه لما مر ببلاد ابن عثمان.

«أرسل قبض عليه، وأخذ ما كان معه من الهدية التى كان أرسلها السلطان إلى ملك التتار، وحصل له من ابن عثمان غاية البهدلة، وهم بشنقه غير مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان».

وأخبر هذا الرسول أيضًا عن ابن عثمان:

«أمور شنيعة كما قالها فى حق السلطان وعسكر مصر، وأنه جهز مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب فى البحر، تجيء ثغر الإسكندرية ودمياط، وفرق من عسكره تجيء على البلاد الحلبية».

وفزع السلطان الغورى لهذه الأخبار فزعًا شديدًا، ورحل إلى الإسكندرية فى زيارة سريعة أخيرة فى الثانى من شهر رمضان ٩٢١هـ (أكتوبر ١٥١٥م) فتفقد أحوال أبراج الإسكندرية ورشيد، «وأشيع أنه شرع فى بناء سور برشيد على شاطئ البحر الملح، فأرسل عدة بنائين وحجارين لسبب ذلك».

وكانت هذه آخر زيارة زارها سلطان مملوكى لمدينة الاسكندرية، ووافى الخطر بأسرع مما كان يتوقع الغورى، وأقبلت جيوش العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول فى سنة ١٥١٧م، فاستولت على الشام ثم مصر.